تقـــديم

بقـــلم

الدكتور محمد الجوهرى
استاذ ورئيس قسم الاجتماع ووكيل كلية
الآداب ــ جامعة القاهرة

هذا الكتاب حد فاصل بين عهدين فى تاريخ علم الاجتماع على ارض مصر . فهذا العلم الذى دخل الجامعات المصرية فى عشرينات هذا القرن ، قد مضى عليه أكثر من نصف قرن عضوا بارزا فى أسرة العلوم الاجتماعية على المستوى الأكاديمى . وكانت خطواته الأولى ، كما كـانت ظروف البداية ، تؤهله لأن يلعب دورا خطيرا سواء على الصعيد الأكاديمى او على الصعيد الاجتماعى خارج أسوار الجامعة ، أعنى على الصعيد السياسى .

غير ان ظروف النشأة الأولى لعلم الاجتماع فى مصر وجهته توجيها نظريا ، جعلت ابنـاءه والمشـتغلين به من جيل الرواد يتوزعون بين اتجاهين : قلة تتبنى موقفا اجتماعيا سياسيا رجعيا ، ينحى نحو الاصلاح ، ويرتبط بمواقف الأحزاب الرجعية ، ويتباعد عن الانخراط فى سلك العمل السياسى التقدمى . والأغلبية الغالبة من هذا الرهط نفضت يدها تماما من اى التزام سياسى ، ونحت فى كتاباتها منحى نظريا خالصا ، ينقل عن المدرسة الفرنسية الحديثة فى علم الاجتماع (مدرسة دوركايم) ، ويلخص أعمالها ، وينطلق من مفاهيمها الأساسية دون اى اعتبار للواقع الاجتماعى المصرى الذى يتداول هذه الكتب ويتعلم منها .

وواضح لكل ذى بصيرة ان هذا النهج الذى سلكه أهل علم الاجتماع الأوائل لم يكن بقادر على أن يثبت وجوده على الصعيد الاجتماعى العام

فالقلة الرجعية المناوئة لمصالح الجماهير ، والتى كانت تسير ضد حركة التاريخ ، قد صدر بشأنها حكم التاريخ ، وداستها حركة الجماهير الثائرة فى عام ١٩٥٢ . ولم يعد لها اثر يذكره احد . اما الأغلبية صاحبة التوجية النظرى والكتابات التأملية وصاحبة الشروح والتعليقات والتفسيرات فكان من المحتم ان تفلس بضاعتها ، وينفض من حولها الناس ، الا من فئة مستضعفه تضطر اضطرارا الى القراءة لها واعنى جماهير طلاب علم الاجتماع .

وتهاوت صروح تلك المدرسة ايضا فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات تحت وطأة هجوم الاتجاه الامبيريقى الوافد من القارة الأمريكية الشمالية . ووجد هذا الفريق ، وبعض الأجيال الشابة ، فى هذه النزعة الامبيريقية ملاذا من التنظير الخالص المتباعد عن واقع المجتمع المصرى ، ووسيلة لكسب ارض على الساحة العلمية وعلى مساحة النشاط الاجتماعى العام (السياسى) من خلال اجراء دراسات ميدانية على بعض السمات والخصائص والمشكلات الاجتماعية .

ولكن هل كان يمكن أن تنجح النزعة الامبيريقية فى تطوير هذه النزعة النظرية الخالصة ، وتقديم موقف متكامل ومتبلور لعلماء الاجتماع المصريين من قضايا مجتمعهم الذى يتحرك فى واقعه اليومى بسرعة تعذر على علماء المجتمع أن يلاحقوها ويرصدوها ويقيموها ؟ ان العمل الميدانى الذى يؤديه باحث موصوب العينين (اعنى باحثا غير مسلح بموقف نظرى واضح) لا يمكن ان يقود الا الى الهاوية . وهذا بعض ماحدث فعلا .

ذلك ان خبرة الدراسات الميدانية على المجتمع المصرى لم تكن مؤهلة لأن تضيف الى الرصيد النظرى لتراث علم الاجتماع المصرى وذلك لسبب بسيط ، هو أن هذا التراث لم يكن له وجود يذكر . وليس من المعقول ان تثبت مسيرة علم الاجتماع على هذا الحال : قصور فى التأصيل النظرى ، يؤدى الى ضعف التوجيه النظرى للباحث الميدانى ، مما يورث هذا الباحث بعد انجاز بحثه عجزا عن ان يثرى هذا الصرح النظرى . وكان لابد من كسر هذه الحلقة المفرغة .

معنى هذا انه لابد لعلم الاجتماع المصرى من وقفة مع نفسه ، ينظر نظرة البالغ الرشيد الى التراث الأجنبى الذى كان يستقى منه نظرياته ومفاهيمه وأدواته ويبنى عليها أطره التصورية . كان على علماء الاجتماع المصريين أن يشاركوا فى الجدل الدائر فى كافة أنحاء العالم الثالث عن كفاءة النظرية السوسيولوجية فى صياغتها الغربية فى تفسير الواقع الاجتماعى الدينامى فى مجتمعات العالم الثالث . وكان عليهم أيضا أن يفيقوا الى حركة الخطى السريعة التى تهدر على مسرح علم الاجتماع الغربى وتتخذ أسلوبا جديدا فى التفكير والبحث ، وتطرق قضايا غير تقليدية لم تكن مألوفة عند أتباع دوركيم فى فرنسا . كان على المشتغلين بعلم الاجتماع المصرى أن يفكروا فى مدى كفاءة البحث الامبيريقى (بصورته الأمريكية) فى فهم الواقع المصرى ودراسته وتفسيره ، وأن يفكروا فى مجموعة القضايا الجديدة المثارة فى دوائر علم الاجتماع الغربى : كعلاقة علم الاجتماع بالأيديولوجيا ، وعلاقته بالدولة ، ودور الظروف الاجتماعية القائمة فى تشكيل مسار هذا العلم .

وكانت هذه الدراسة — التى قدمها صاحبها فى صورتها الأصلية الأولى كرسالة جامعية لقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة — شرارة الانطلاق وصرخة التحذير وسط هذا الحشد الهادىء المطمئن من أهل الاجتماع المصريين . وهى ليست ثورية من الباحث المؤلف صاحب هذا العمل ، بقدر ماهى انعكاس لوعيه الكبير واحساسه المرهف بما يدور على مسرح علم الاجتماع الغربى . وحقيقة ذلك ببساطة اننا حتى وقت قريب لم نكن نعرف من هذا الاجتماع الغربى الا ملامحه التقليدية (الرجعية المحافظة)، وقصر الكثيرون منا عن ملاحقة التيارات الجديدة التى ثارت فى داخل علم الاجتماع الغربى نفسه ، ونقضت كثيرا من مسلماته وشككت فى كثير من قضاياه ، وأبانت كثيرا من نقاط الضعف فيه ، وقدمت اجتهادات لكثير مما أدانته من مواقف هذا الفكر واتجاهاته .

وهذا هو بالضبط موضوع هذا الكتاب . انه محاولة لفرز وتصنيف واعادة ترتيب هذا الركام الهائل من الفكر السوسيولوجى الغربى من خلال دراسة مشكلة محورية فيه ، هى مشكلة النظام العام . وقد جعل منها

المؤلف نوعا من القطاع الراسى الذى يكشف له ولنا عن تكوينات هذا التراث الغربى الذى نتشدق به ونردده منذ نصف قرن مضى .

والطريف فى هذه الدراسة أن صاحبها لم يقدم نقد علم الاجتماع الغربى الصادر من منطلق خارج عن تلك المجتمعات . ولكنه التزم بالاقتصار على عرض التيارات النقدية التى بدأت — منذ أكثر من عقد كامل — تعيد النظر فى أغلب القضايا الكلاسيكية التى يقوم عليها علم الاجتماع . وأكد فى غير موضع أن هذه التيارات النقدية لم تنشأ من خارج البناء الأكاديمى للعلم ، بمعنى أنها لم تنشأ فى مجتمعات غير غربية . وانما نشأت داخل المجتمعات الغربية نفسها ، وتزعمها مجموعة من العلماء الذين كانوا الى زمن غير بعيد ينتمون فكريا الى نفس البناء النظرى الذى يتعرضون له بالنقد . وهذا هو مادفع الدكتور احمد زايد الى أن يصف هذه التيارات النقدية داخل علم الاجتماع الغربى بأنها « ثورة من الداخل » تحاول ان تغير من الأسس التى يقوم عليها بناؤه التقليدى .

والمؤلف بذلك يحدد مجال دراسته تحديدا دقيقا يخرج منها كافة الانتقادات التى وجهتها الماركسية الى علم الاجتماع الغربى ، سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية . فحديثه عن الاتجاهات الكلاسيكية فى علم الاجتماع لن يتطرق الى الماركسية وحديثه عن الاتجاهات النقدية الحديثه لا يتطرق لأى صورة نقدية نابعة من التفكير الماركسى . ومع أن بعض النقاد قد يكونوا متأثرين بالفكر الماركسى ، الا أن ذلك لايعنى انهم لاينتمون الى علم الاجتماع الغربى .

وسوف يدرك قارىء هذا الكتاب ان جولة المؤلف بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية فى علم الاجتماع سوف تكون اسهاما مباشرا وشرطا ضرويا للنهوض بعلم الاجتماع المصرى . فهذه الرؤية المعاصرة الأصيلة لما يدور على مساحة علم الاجتماع الغربى ، سوف تجعل المشتغلين بعلم الاجتماع عندنا أكثر وعيا عند محاولة الاستفادة من النظريات السوسيولوجية الغربية ، أو عند محاولة اختبارها فى مجتمعاتنا . وهذا وذاك من الشروط الأساسية لتطوير رؤية مصرية للنظرية السوسيولوجية فى اطار نظرة أشمل الى طبيعة البناء الاجتماعى فى مجتمعات العالم الثالث .

ولا يخفى ان هذه الجولة التى نقوم بها على صفحات هذا الكتاب بين احدث التيارات والاتجاهات فى علم الاجتماع الغربى سوف تقوم بعملية تحديث لمعلومات الكثيرين منا عن النظرية الاجتماعية المعاصرة . وهو فى ذاته مكسب هام لكل من يوفقه حظه الى الاطلاع على هذا الكتاب . ولكن المكسب الأكبر الذى سيخرج به القارىء هو ذلك النهج التحليلى المتطور الذى اتبعه المؤلف فى عرض موضوعاته ، ومناقشتها ، وتحليلها . فهو يقدم جهدا فى ميدان سوسيولوجيا علم الاجتماع وسوسيولوجيا المعرفة لا نظير لهما حتى الآن فى الكتابات العربية فى علم الاجتماع ، التى يزيد عمرها الآن عن نصف قرن .

وهذا هو بالتحديد ماقصدت اليه عندما قلت فى صدر هذا التقديم ان هذا الكتاب حد فاصل بين عهدين فى تاريخ علم الاجتماع على أرض مصر . فهو جديد فى موضوعه ، واصيل فى معالجته ، وهو وقفة مع تراث علم الاجتماع الغربى ، من أجل أن يشتد عودنا وتقوى سواعدنا لكى نشيد معا صرحا جديدا لعلم الاجتماع المصرى .

اما مؤلف هذا الكتاب فهو ابنى البكر ، ابنى فى الدراسة ، وصديقى فى الحياة ، وزميلى فى العمل ، وأملى الذى اعيش به ، والمستقبل الذى يدخل البهجه الى نفسى والاطمئنان الى قلبى والثقة الى عقلى .. حين افكر فى علم اجتماع مصرى يشيده احمد زايد وزملاؤه ممن هم على شاكلته .

ومن أجل هذا استشعر حرجا فى أن اقدم للقارىء شخص المؤلف ، أو امتدح اسلوبه فى العمل والتفكير ، او اصور خلقه وادبه الجم وتواضعه وصبره الذى لا ينفذ على العمل . ولكن الثقة تملؤنى فى ان قراءه هذا الكتاب قراءة متأنية سوف تكشف للقارىء عن جوهر هذا المؤلف ، وتبين عن ملامحه فى التفكير وفى البحث . انه امل هذا العلم فى بلادنا ، والله يحفظه ويوفقه .

القاهرة فى أول يوليو ١٩٨١ **محمد الجوهرى**